

قراءات في سطور المدينة المغربية والعربية

بقلم محمد الناصر النفاوي

من أصداء تعريب رواية "إدريس رواية شمال أفريقية" لعلي الحمامي.

الباحث المغربي الأقصوي الخطابي العقيدة علي الإدريسي:

"هدية طالما انتظرتها، فبارك الله فيك وأعانك على إخراج هذه الشهادة
التاريخية والأدبية على الأحداث"

الباحث المغربي الأقصوي الاستقلالي النزعة محمد العربي المساري:

" كان علال الفاسي قد شايح (الحمامي) فيما أقدم عليه من محاولات وذكر بأنه كان قريبا
لباش حمبة دون أن يغفل أنه لم يكن كثير التدين. ولكنه كان مقتنعا بأن المغربي الذي لا
يخلص للإسلام إنما يضر بوطنه أي كان وجدانه ينبض بما جعله ، وهو الماركسي، ينتفض
ضد طوريز ويفرض على الحزب الشيوعي لأن يحترمه "

علي الحمامي ، صاحب "إدريس رواية شمال أفريقية" الرواية التي عربناها ، لا يكاد يسمع به أحد .
وإذا كان المهتمون بالرواية، و السياسية منها خاصة، في بلاد المشرق لم يتفطنوا وجود روائي
جزائري في وزن علي الحمامي فان لهم، باستثناء اللبنانيين والسوريين والإسرائيليين وعدد من
المصريين ، عذرا في ذلك لأنهم أنقلوفونيون .أما من عداهم وخاصة في بلاد المغرب فلا عذر له
مقبولا: ففي تونس، على سبيل المثال، "استعملت الميكروسكوب" في الوسط الجامعي الذي أقصد به
المختصين في شعبة الفرنسية، فلم أعر على واحد/واحدة سمع/ت باسم الحمامي رغم وجود حاصلين
على شهادات جامعية عليا في الفرنسية اهتمت بالأدب المغربي أي المغربي حسب ما يستعملون من
عبارات سياسية.

وفي الجزائر التي ينتسب إليها هذا الروائي وتنتشر فيها الفرنسية، على عكس بقية بلاد المغرب، حتى
عند عامة الناس يوجد عدد قليل من الجزائريين المتصلعين في الفرنسية قرؤوا هذه الرواية في
الفرنسية ولكنهم وقفوا عند هذه الخطوة. أما عن ذوي التكوين العربي الديني أساسا فلا تسأل. و كيف
يطلب المرء من معربين أن يقرؤوا رواية في الفرنسية مثل التي كتب علي الحمامي تكاد تمتنع لغة
ومضامين، حتى لو سبق أن عربت، على كثير من ذوي التكوين المتوسط ؟
وشأن المغرب الأوسط هذا هو شأن المغرب الأقصى تماما حتى لا نتحدث عن موريتانيا وما بينهما.
ولكن ما الذي حدث بعد أن شرعنا منذ أواخر سنوات التدريس في الجامعة التونسية وخاصة منذ أن
عربنا " إدريس رواية شمال أفريقية" وأحدثنا هذا الموقع الذي نشط فيه عدد من
طالباتنا وطلبتنا بنشر دراسات حول الحمامي ورائعته "إدريس" ؟

إن ما حدث مذهل حقا. وأنا أستعمل هذا الوصف من دون خشية اتهام بالمبالغة. بل أضيف انه لن يقر للموقع قرار إلا عندما يبلغ عدد قارئات "إدريس" وقرائه.. عشرات الآلاف. هل أبالغ هنا أيضا؟ وما هو الدليل على ما أدعي؟

يوجد أكثر من دليل.

الدليل الأول هو قوقل الذي يمكن أن يعود إليه أي كان في العربية وفي الفرنسية.

الدليل الثاني هو ردود الفعل الايجابية في بلاد المشرق وبلاد المغرب وبلاد الاغتراب على الرغم من أن ردود الفعل في بلاد المشرق وفي بلاد الاغتراب تقتضي وقتا لضرورة البدء بـ "تعاطي" المشرقيين والمغتربين المؤلف والأثر وان كان هذا الوقت أقصر في بلاد الاغتراب لحيوية المثقفين المغتربين وتفتحهم مقارنة بمثقفي بلدانهم الأصلية مشرقا ومغربا.

ولنبداً في بلاد المغرب بموقع المغتربين الأمازيغ في الولايات المتحدة الأمريكية فقد رحب موقع المنظمة الأمازيغية العالمية بالتعريب ونشر مقتطفات منه.

كذلك رحب به الأمازيغي الليبي في فرنسا موحد و مادي في موقع المؤسسة الثقافية الأمازيغية "توالت" (الكلمة) الذي يشرف عليه من قريب وأبدى اعجابه بمحاولة علي الحمامي إعادة كتابة تاريخ تامزغا (بلاد المغرب).

وفي تونس التي صدرت فيها الترجمة وحرص الناشر، توقيا مرضيا منه، أولا على إدراجها ضمن سلسلة "آداب الدنيا" وثانيا على التأكيد على أن "الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز الوطني للترجمة" أقبل عدد كبير من الطالبات والطلبة على قراءة الرواية (ولا

ننسى أن ثلث زوار الموقع ،على ما تذكر أليكسا، تونسي) و تعددت آيات الترحيب بها وبصاحبها (انظر

خاصة ما كتب الأستاذ الجامعي في التاريخ عبد اللطيف الحناشي) بل وصل البعض منها الى حد

المطالبة باعتماد تاريخ موت الثلاثي المغربي الحبيب ثامر وعلي الحمامي وامحمد أحمد بن عبود في

ديسمبر 1949 يوم تذكر وطني مغربي. ولمثل هذا الأمر، في تونس، دلالة خاصة إذا وضع المرء

نصب عينيه شبه غياب النزعة الأمازيغية في هذا البلد المغربي بسبب: أولا . تعريب البلد تعريبا كاملا.

ثانيا: طبيعة النخب العسكرية والمدنية التي حكمته بداية من انفراد مؤسس العائلة الحسينية الانكشاري

العثماني حسين بن علي بالحكم سنة 1705 مرورا بتأسيس بورقيبة بن علي الألباني الأصل

الجمهورية على أنقاض العرش الحسيني سنة 1957 ووصولاً الى تنحية زين العابدين بن علي قبل

ربع قرن بورقيبة بن علي عن الحكم واختيار مصاهرة عائلة تنحدر هي بدورها من أصول انكشارية

عثمانية إذا كانت قد وفدت على البلاد منذ ثلاثة قرون فقد بقيت مدينية تنفر من الريف "نفور الصحة

من المرض" وثالثا المنهج الدراسي الذي يكاد لا يتوقف، حتى لمجرد الاستراحة القصيرة، عند الدول

المغربية البربرية وهو أمر مفهوم عند قوم أصولهم على ما رأينا.

وفي الجزائر، إذا كانت الأوساط المثقفة بالمعنى الفصفاض الذي نعرف قد غضت النظر عن صدور

التعريب، فانه يمكن للمرء أن يقرأ في موقع معارض غير تقليدي هو موقع "

Le Quotidien d'Algérie (منبر الجزائر الحرة) ما تعريبه:

" انه لخبر سار جدا. إدريس معربا، إن هذه لمعلومة غير هينة"

Une très bonne nouvelle. Idris traduit en arabe est une information de taille

أما في المملكة المغربية فقد تميز عدد من المواقف غير الرسمية (ونحن لا ننتظر ردود فعل رسمية مرحبة برواية مهداة الى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي) من صدور التعريب ، ورغم اختلاف النزعات، بترحيب نفسه بأمور ثلاثة نحرص على ذكرها:

أولاً: يوجد في المملكة عدد من المثقفين يصرون عن "ذهنية مدنية حقيقية" شاركهم فيها كثير من المغتربين وعدد قليل جدا من المشرفين على مواقع في المشرق مثل موقع "ديوان العرب" وعدد كبير من المواقع الأمازيغية. هذه الذهنية يمكن أن نفسرها بتراجع "أ.د.ن." السطو الذي يمكن أن يدفع بواحد من المثقفين أو السياسيين الى أن يطلع على ما تكتب بل يستثمره من دون أن "يحس" أن من واجبه ، على الأقل، "أن يصبحك". وهذه قضية لن نتوسع فيها.

ثانياً: إذا استثنينا مسألتين يعد الحديث الحر فيهما من الممنوعات وهما شخص الملك ومراكشية الصحراء الواقعة بين مراكش وموريتانيا فان الحديث في ما عدا ذلك متاح لا للمثقفين المراكشيين الذين كثيرا ما لا يترفع أكثرهم نفعا وسقيا عن إبداء آرائهم في القضايا الحساسة علنا فحسب بل هو متاح لعامة المراكشيين الذين في إمكانهم أن يعبروا عن آرائهم، حتى بأسماء مستعارة في أغلب الأحيان وبأساليب يقترب عدد منها أحيانا من الثلب وسواء أتعلق الأمر بزعماء الأحزاب أم الوزراء أم بمن هم دونهم مراكز على عكس ما يحدث في ليبيا أو تونس اللتين يمكن أن يتعرض المرء فيهما إذا تجرأ فنقد ، عن حق، مسؤولا سياسيا من صنف وزن الريشة لامتحان لن يعرف مجراه ومرساه أو حتى في الجزائر وان كان وضع البلد الشقيق يقتضي

تشخيصا آخر. ذلك أن الصحافة في الجزائر تتميز بأمر عجيب يتلخص في أمرين أولهما الحرية

التي لا حدود لها تقريبا اذ يمكن للجزائري العادي أن يعبر، وباسم مستعار ، عن رفضه سياسة الدولة في قضية الصحراء على سبيل المثال (وهذا خط أحمر في مراكش) وأن يوجه للرئيس بوتفليقة تهمة تعد في مراكش خطا أحمر كذلك حتى لا نتحدث عن قضايا تمس كل قطاعات الدولة بدءا باختلاس المسؤولين أموال الدولة وصولا الى تحرش عدد غير محدد من الأساتذة الجامعيين بالطالبات ومبادلة أعداد الامتحانات بـ"مقابل عيني" (وهذه ممارسة لا يخلو منها حصار بلد مغربي).

أما الأمر الثاني الذي يكاد يذهب بمنافع هذه الحرية التي أغبطها الجزائري فهو أن هذا المجال الواسع متاح فقط لـ"الجماهير" الحاكمة بأمرها والتي يصعب عليها أن تقبل مثقفا جزائريا يجرؤ على معارضتها. وبذلك حلت محل سلطة إكراه حقيقية. هذان الأمران ليس يمكن تفسيرهما إلا بالرجوع الى تاريخ الجزائر الخاص وهو تاريخ ولد بشكل يكاد يكون جماعيا شعورين أولهما الشعور بـ"الحصار" فلكان الجزائر أصبحت جزيرة لا يحيط بها غير الأعداء وثانيهما ، ولعله نتيجة للشعور السابق، هو حالة التحفز للهجوم لا على غير الجزائريين فحسب ولكن على كل مثقف جزائري يجرؤ على شق عصا طاعة "العدد" وبذلك تسمر الوضع الثقافي تسمرا اذ من الذي يمكنه من المثقفين الكبار أن "ينزل الى ميدان الصحافة" ليختلط بعامّة المتدخلين وخاصة ليدلو بدلو مخالف في علاقة الدين بالسياسة على سبيل المثال ؟

وفي مراكش يحدث عكس كل ما يحدث في ليبيا وتونس وحتى الجزائر تماما أي لا تكميم أفواه في ليبيا وتونس يشي بشذوذ عجيب في عصر قوقل ولا دكتاتورية "عامة" نصبت نفسها في الجزائر حكما على المثقفين وإنما صيغة "صيدلية" معقدة ذكية تخفف من حدة صراع داخلي مكبوت لا سبيل إلى إخماده بوسائل متخلفة عفاها التقدم التقني اليومي الذي يخبر كل صغير منا كبير.

إن ما تقدم هو الذي يفسر اختياري مفكرين مراكشيين معروفين شاهدين على أهمية تعريب "إدريس" لعلي الحمامي". هذان المفكران لم يكتفيا بالترحيب بالحدث في لغة خشبية ولكنهما عمدا إلى تقييم الحدث بأن كتبنا فيه ما يساعد من يكتب في الموضوع لاحقا على أن يتبين في "إدريس" لا ملامح رواية سياسية فحسب ولكن ملامح "فلسفة تاريخ" مغربي عربي أما زيغي أيضا.

أولا:

صدي تعريب "إدريس" عند ، الباحث والجامعي والسياسي علي الإدريسي:

الأستاذ محمد ناصر نفاوي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبعد

أولا أشكركم جزيل الشكر وأفضله على هديتكم الثمينة لي بواسطة الأستاذ نور الدين لشهب، وهي هدية طالما انتظرتها فبارك الله فيك وأعانك على إخراج هذه

الشهادة التاريخية والأدبية على الأحداث وعلى تذكير الناس بفكرة الوطنية الكبرى التي كانت آخذة طريقها لانبعاث هذا المغرب الكبير الذي تناقص دوره منذ انتهاء دولة الموحدين. وهي شهادة أيضا للمشروع الذي عبر عنه الأمير الخطابي في تلك المقدمة القليلة الكلمات والكبيرة في مرماها وغايتها كما أنها شهادة على الضرر الكبير الذي ألحقته الوطنيات الصغرى بحلم تحقيق مشروع تحقيق المغرب الكبير وبنائه سويا من قبل أبنائه بدلا عن دفع أبنائه إلى تقزيمه في هذه الوطنيات الصغرى المشتتة المدمرة للمشاعر والآمال في الوقت نفسه .

كنت قد حصلت في الماضي على النسخة المكتوبة بالفرنسية، وكنت أتمنى، كما تمنى الخطابي في مقدمته، تقديم هذا الكتاب الشهادة إلى قراء اللغة العربية في المشرق والمغرب معا. وأتمنى أن تكون أنت ذلك الرجل الذي تمنى عليه الأمير القيام بذلك العمل النبيل، وأرجو أيضا أن نبقى على اتصال للتشاور وتبادل الأفكار التي تخدم صالح بلدنا المغرب الكبير بالوطنية الكبرى.

وأنتهز هذه المناسبة السعيدة أيضا لأبارك لك عيد الفطر السعيد سائلا العلي القدير أن يعيده عليك وعلى كل من تعز وتحب بدوام الصحة والعافية والسعادة

وأجدد لك شكري مرة أخرى وبارك الله فيك."

علي الإدريسي

أخيراً:

صدي تعريب "إدريس" عن الباحث محمد العربي المساري:

عزيزي الأستاذ محمد الناصر النفزاوي

بعد التحية

الثالث

"أمكنني أن أقرأ مقدمتكم لرواية "إدريس" للمرحوم علي الحمامي ووجدتها كفيلة بأن توضح للجيل الجديد من المغاربة كيف أن أحد أسلافهم قد شق الطريق منذ ثمانين سنة لوضع الأمور في نصابها من حيث موقعة المغاربي في خريطة العالم. وهي مسألة تتطلب التحيين بكيفية مستمرة على ضوء المتغيرات وفي سياق المعنى الجوهرى للأمر وهو ما لا فكاك منه مهما كانت المتغيرات جارفة.

وقد راقني أن تقدموا خلاصة مهمة في نهاية المقدمة بتركيز النظر على الثالث الذي يرمز إليه ابن تومرت وابن رشد وابن خلدون.

وهناك في ثانيا العرض الذي بسطتموه في سلاسة وشفافية بنود تبدو بالنسبة لنا نحن المغاربة من المسلمات البديهية في حين تدهش المشاركة استنباطاتنا ونحن نقرأ التاريخ وخاصة حين نتحدث عن وجود امتداد في الزمن للذهنية المغربية، وهو ما صرح به علال الفاسي قراءه في المشرق حينما أكد أن القومية المغربية التي تبلورت بعد الإسلام هي سليلة قومية مغربية وجدت من قبل.

نحن لا شك جزء من العالم العربي. واختيارنا للانتماء العربي ثقافيا هو اختيار واع نابع من إدراكنا للمصلحة والتناغم مع ذهنتنا. فقد كان تعريب المنطقة على يد أسر حاكمة أمازيغية ولكن دائما وفق أسلوب خاص يتوافق مع ذهنتنا. واني سأستعمل عبارتك المبتكرة فأقول إن العروبة التي اخترناها "مكررة" وهي عروبة ثقافية وليس عرقية ولا سياسية:

أنا لا أجد ضيرا في أن أقول عني مغربي لأنني ابن هذه الأرض المتميزة في طقسها وتضاريسها وذهنياتها

وأنا عربي دون أن تكون الناصرية أو البعثية هي مرجعيتي
ومسلم دون أن تكون الوهابية أو الاخوانية هي بوصلتي
وأنا حدائي دون أن يعني ذلك الذوبان في "العولمة" الجاهزة للاستعمال أي
الـ"بري - آجورطي".

تراني وقد وضعت الجمل السالفة في صيغة النفي لأن النفي أحد طرائق التعريف.
وأنا عروبي لأنني نافر من طغيان الهيمنة الفرنكفونية
وأقبل ، عن طيب خاطر ، أن يكون في مكتبتي كاتب ياسين والطاهر بن جلون
لأنهما تعبيران مغربيان مثل غيرهما من الكاتبين بالعربية أو الأمازيغية أو
بالاسبانية

وأغضب حين أسمع نداء الى حرق المصاحف
وأشمئز من نداء جهول يدعو الى استرداد الأندلس
وأنا مغربي من المغرب الأقصى لأنني حامل لإرث أجداد أبدعوا في الفكر
والمعمار والإبداع الفني بمختلف صوره ، يعبرون عن ذلك بلكنتهم وبمضمون
نابع من طريقة تفكيرهم وفهمهم للأشياء والماجريات.

أنا مثل أمي ومثل شاعر الملحون لا أتحرك لدى التعبير عما يخالجنى فأستعمل
جملا مبناها فيه حضور واضح لطريقة تفكير متوارثة لا يمكن التحرر منها.
فأنا أتحدث لغة عربية مكتسبة مرت عبر مصفاة العقل أي التحكم المسبق في
أسلوب السبك والتعبير.

وأنا في تتبعي لما يعتمل في العالم أفهم لماذا فعل مصطفى كمال بتركيا ما فعل
وأفهم لماذا يفعل أوردغان ما يفعله اليوم وهو يسعى الى إلحاق بلاده بأوربا
ولكن بعفشها في حين أن ساركوزي وميركيل يريدان منه أن يترك العفش في
الباب إذا أراد أن يدخل البيت الأوربي.

وأفهم من جهة أخرى كيف يغار الأوربيون على مكتسباتهم لأن ما تمثله أوربا
اليوم ومنذ قرون هو ليس من صنع الصدفة وما هو نتاج القرون ليس سهلا
طمس الأقاليم التي ساعدت في صياغته وجعلت أوربا هي أوربا.
كما لا يمكن تجاهل أن الشرق شرق والغرب غرب ولكن ليس حتما ألا يلتقيا بل
من الممكن أن يتعايشا في احترام.

وما أنا بصدده ليس توفيقا من أجل المجارة والمداهنة ولا تلفيقا بين المتضادات
لمغالبة الكيمياء التي تصنع قانون الأشياء ولكن هو نحو واضح قوامه السعي
لتحسين الواقع مع الطاعة الضرورية لقوانين الواقعية. وهذا وذلك هو المنطق
الذي يحرك التاريخ.

وفي النهاية فأنا مغربي لأنني منتج مركب ليس سهلا تقديمه بأربع كلمات مسطحة.

وهكذا ترون أن قراءة النص المنشط للذهن الذي وافيتموني به تمرين يذهب بالذهن بعيدا وعميقا لمحاولة هي من نفس سلالة المحاولات التي أقدم عليها الحمامي منذ ثمانية (كذا) عقود.

وفي ذلك الوقت كان علال الفاسي قد شايعه فيما أقدم عليه من محاولات وذكر بأنه كان قريبا لباش حمبة دون أن يغفل أنه لم يكن كثير التدين ولكنه كان مقتنعا بأن المغربي الذي لا يخلص للإسلام إنما يضر بوطنه أي كان وجدانه ينبض بما جعله ، وهو الماركسي ، ينتفض ضد طوريز ويفرض على الحزب الشيوعي لأن يحترمه"

تحياتي وأطيب التمنيات

م . ع . المساري